د. شهرة بلغول

المحاضرة التاسعة:

التأثر والتأثير

يعد التأثير والتأثر أقدم المقاربات المعتمدة في الدرس المقارن وأكثرها ارتباطا بالمدرسة الفرنسيّة؛ بالنظر إلى الخلفيّة التاريخيّة للدرس التي تهدف إلى تحديد أصل الظاهرة الأدبيّة والمساهمة في إكمال جانب مفقود في تاريخ الأدب القومي "فمن خلال تلك المساهمة يضيف الأدب المقارن إلى تاريخ الآداب جانبًا كان مؤرخو الآداب القومية قد أغفلوه. فقد كانوا يؤرخون لكل أدب قومي بمعزل عن الآداب القومية الأخرى ولكأنه تاريخ التطور الداخلي لذلك الأدب فقط. لم يعر مؤرخو الآداب القومية اهتماما لعلاقة كل أدب بالآداب القومية الأخرى"[1]، وفي الوقت الذي تعنى فيه دراسات التأثير والتأثر بالصلات التاريخيّة فتعكف على إثباتها، تهمل الجوانب الداخلية للظاهرة الأدبية، تاركة للنقد وظيفة الكشف عن أبعادها الجمالية.

على الرغم من محدوديّة نتائج الدراسة على الصعيد الجمالي والذوقي، فإنّ دراسات التأثير والتأثر كشفت بطلان مقولة الأصالة الخالصة، و"الاكتفاء الذاتي للآداب القومية واستقلالية تلك الآداب وتفردها، فليس هناك أدب قومي لم يتأثر بالآداب القومية الأخرى بصورة من الصور. كذلك فإن لأصالة الأدب القومي وخصوصيته وتفرده حدودا. فقد دلت دراسات التأثير والتأثر على أن هذه الأمور نسبية، وأن الآداب في حالة تفاعل وتبادل، وأخذ وعطاء، واستيراد وتصدير. وبذلك شكلت دراسات التأثير والتأثر ردا على دعاة التعصب القومي"[2]؛ ذلك أنّ الآداب تبلغ درجة كمالها أخذًا وعطاء لا انغلاقًا.

---

[1] -عبده عبود، الأدب المقارن مشكلات وآفاق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص25.
[2] -المرجع نفسه، ص28.

لذا يمكن القول إنّ الآداب في حركة تلاقح دائمة، تضمن استمراريتها عبر تجديدها بمؤثرات أجنبيّة، بحكم أنّ الانغلاق علامة موت وجمود، فالمتأمل في مسار الآداب العالميّة لا يخفى عنه دور المؤثرات الخارجيّة في إثراء الظاهرة الأدبيّة، ولعلّ أقدم مثال على ذلك الحديث عن تأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني، كما أنّ أدبنا العربي لم يكن في منأى عن هذه المبادلات التي أسهت في إغنائه على مر العصور، فقد أفاد من الأدب اليوناني والفارسي والهندي عندما انفتح العرب خلال العصر العباسي على منتجات الثقافات الأخرى نتيجة اختلاطهم بشعوب ذات مدنيات تختلف عما ألفوه، وذات حضارات متقادمة العهد، فكانت تلك الشعوب تنحدر من أعراق غريبة عنهم حامية وآرية لها عقليات ونزعات متباينة فتلقح العقل العربي بتراث ثقافي ضخم وتوسعت آفاقه [3]، كما كان لحركة الترجمة دور في ظهور اتجاهات جديدة تركت أثرها في القصيدة العربيّة في ما يعرف بالمؤثرات العقليّة والفلسفية في القصيدة العربيّة.

لا يمكن الحديث عن التأثير والتأثر دون الإشارة إلى ما عرفه الشعر العربي في الأندلس نتيجة الانفتاح على المؤثرات الخارجية المرتبطة بخصوصيّة البيئة الأندلسيّة، ويتجلّى ذلك في العلاقة بين الموشحات والتروبادور، وما دار حولهما من نقاش نقدي بين الباحثين العرب والمستشرقين لتبيّن المؤثّر من المتأثّر، فمهما تباينت الرؤى يبقى الإجماع قائمًا على أنّ للتفاعل الحضاري دور في إثراء الظاهرة الأدبيّة كلّما امتدت صلاتها خارج حدودها القوميّة.

[3] - ريمون طحان، الأدب المقارن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1972، ص9.